الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
Arab Private Schools Federation

رحلة نحو جوهر الإنسان

حيث يلتقي غنى المال بغنى القلب

د. خميس بن عبيد العجمي
رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان

360 ADVANCE THROUGH TECHNOLOGY | KNO SMART SCHOOLING
unicef
UNESCO United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization
GenEx Generational Education Exchange
تمكين TAMKEEN
UNIVERSITY OF VICTORIA LONDON - UK
AMIEF

في عالم يسوده السعي المحموم وراء المال والثروة، و تُقاس قيمة الإنسان فيه بما يملك من أرقام في حسابه المصرفي أو بعدد الأطفال الذين ينجبهم، تأتي الحكمة الإلهية لتضع الأمور في نصابها الصحيح، إذ تقـول الآية الكـريمة : ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾(الكهف،46)، ففي هذا التعبير القرآني المعجز دقة لغوية وفلسفية عميقة تستحق التأمل والتفكر.

فاختيار كلمة "زينة" دون "قيمة" ليس مجرد اختيار لغوي، إنّما هو فهم عميق لطبيعة الوجود الإنساني ومصادر السعادة الحقيقية، فالزينة شيء جميل يُضفي بهجة على الحياة، لكنها ليست جوهر الشيء ولا أساس قيمته، فهي كالطلاء الذي يجمّل الجدار دون أن يكون هو البناء ذاته.

والزينة في طبيعتها مؤقتة ومتغيرة، فالمال قد يأتي ويذهب، والأولاد يكبرون ويستقلّون، والجمال يتلاشى مع الزمن، وهذه كلّها عناصر تُضفي على الحياة لوناً وبهجة، إلاّ أنّها لا تشكلّ جوهر الإنسان أو حقيقة وجوده، فهي كالورود التي تزين الحديقة - جميلة ومبهجة- لكنّ الحديقة تبقى حديقة حتى وإنْ ذبلت الورود، فالإنسان الذي يعيش من أجل كنز المال فقط، أو يقيس نجاحه بعدد أولاده فحسب، إنّما يعيش في سطحيّة الوجود، مضيّعاً على نفسه أعماق الحياة الحقيقية.

في المقابل، تكمن القيمة الحقيقية للإنسان في أعماقه بكونها جوهراً ثابتاً وعميقاً، وتتأتّى في معرفته وحكمته، وطيبة قلبه ونقاء روحه، وقدرته على العطاء والحب والتأثير الإيجابي في الآخرين، وهذه هي العناصر التي تبقى مع الإنسان حتى بعد زوال زينته الدنيوية بأكملها، فالمعرفة لا تُسرق والحكمة لا تُفقد، والقلب الطيب يبقى كنزاً لا ينضب، وهذه هي الثروة الحقيقية التي لا تتأثر بتقلبات الأسواق ولا بتغيرات الزمن.

ولو توقّفنا عند ثنائية غنى القلب أم غنى المال، وكشفنا الغمار عن هدف الإنسان الأساسي، لوجدنا أنّه لو كان الهدف غنى المال، فإنّه سيدخل في دوامة لا تنتهي من السعي والقلق، فالمال، مهما كثر، لا يشبع جوع النفس للمعنى والهدف، فها نحن نرى معظم أثرياء العالم يعيشون في قلق دائم خوفاً من فقدان ثروتهم، ونراهم يبحثون عن السعادة في أماكن خاطئة.

ARAB-PSF.COM

وهذا النوع من الغنى مشروط ومؤقت، ومرتبط بظروف خارجية قد تتغير في أيّة لحظة، بسبب عوامل كالأزمات الاقتصادية، المرض، والخسائر التجارية، التي قد تفرغ الجيب وتترك الإنسان خاوياً إذا لم يكن له مصدر آخر للقوة والسعادة.

أمّا غنى القلب فهو غنى من نوع مختلف تماماً، فهو غنى ينبع من الداخل، من الرضا والقناعة، من الحب والعطاء، من الإيمان والأمل، وهذا الغنى لا يعتمد على الظروف الخارجية، إنّما على الحالة الداخلية للإنسان، بما يمتلئ به قلبه من حب ورحمة، فيجد السعادة في أبسط الأشياء، ويسعد برؤية ابتسامة طفل، بمساعدة محتاج، بلحظة تأمل في جمال الطبيعة، وهذا النوع من السعادة لا يعتمد على الرصيد البنكيّ، إنّما قوامه الرصيد الروحي والعاطفي.

هذا ويدعم علم النفس الحديث هذه الرؤية القرآنية العميقة، ففي نظرية ماسلو المتعلقة بهرم الحاجات، تظهر الحاجات المادية (الطعام، المأوى، الأمان) في قاعدة الهرم، بينما الحاجات العليا (تحقيق الذات، البحث عن المعنى، الحب والانتماء) تحتلّ قمّة الهرم، وهذا يعني بالضرورة أنّ الإنسان، بعد تلبية حاجاته الأساسيّة، يبحث عن معنى أعمق للحياة، فالمال وحده لا يمكن أنْ يوفّر هذا المعنى، بل قد يصبح عائقاً أمام الوصول إليه إذا أصبح هدفاً في حدّ ذاته.

لذلك تظهر أغلب الدراسات أنّ المجتمعات التي تركّز بشكل مفرط على تجميع الثروة كمقياس للنجاح تعاني من مشاكل اجتماعية عديدة، إذ نرى لديها ارتفاعاً في معدلات القلق والاكتئاب، وتفككاً في الروابط الأسرية، وضعفاً في التضامن الاجتماعي، وانتشاراً للجشع والأنانية، ففي هذه المجتمعات، يصبح الإنسان مجرد رقم اقتصادي، ويُقيّم بناءً على إنتاجيته وقدرته على الكسب، ممّا يخلق ضغطاً نفسياً هائلاً ويفقد الحياة معناها الإنساني العميق.

ARAB-PSF.COM

أمّا المجتمعات التي تهتم بالقيم الروحية والأخلاقية، إلى جانب التطوّر المادي، فتكون أكثر توازناً وسعادة، فالتركيز على التعليم والمعرفة، الرحمة والعدالة، والحب والتسامح، يخلق بيئة اجتماعية صحية يمكن فيها للإنسان أنْ ينمو ويزدهر، وهذا لا يعني إهمال الجانب المادي، إنّما يرمي إلى وضعه في إطاره الصحيح كوسيلة لا كغاية، فالمال والثروة أداتان مهمّتان لتحقيق الرفاهية والأمان، إلاّ أنّهما لا يجب أنْ تصبحا الهدفين الوحيدين أو الأساسيّين في الحياة.

فالحكمة أنْ يكون هناك توازن، فيقال "الدنيا بالمال الحلال أيسر وبالأولاد أجمل"، وهذا القول الجميل يلخّص الموقف المتوازن من المال والأولاد، فالاعتراف بأهميتهما في تسهيل الحياة وإضافة البهجة إليها لا يتعارض مع عدم جعلهما مصدر القيمة الوحيد، فالمال الحلال يوفّر الراحة والأمان، والأولاد يضيفون الفرح والمعنى، وهذا كلّه لابدّ وأنْ يحدث تحت مظلّة من التوازن والاعتدال، فالمشكلة تكمن في الإفراط، أيْ عندما يصبح السعي وراء المال هوساً يستهلك الوقت والطاقة بأكملهما، أو عندما يصبح الاهتمام بالأولاد مفرطاً فيحول دون تطوير الذات والاهتمام بالآخرين.

فالحياة المتوازنة تتطلّب تكاملاً بين الجانب المادي والروحيّ، فالجسد له احتياجات مادية مشروعة، والروح لها احتياجات معنوية ضرورية، وإهمال أيٍّ من الجانبين يؤدي إلى اختلال في التوازن الإنساني، فالإنسان الحكيم هو من يسعى لتحقيق الكفاف المادي دون إفراط، ويهتمّ في الوقت نفسه بإثراء حياته الروحية والفكرية، و يعمل لكسب الرزق الحلال، لكنّه لا ينسى أنْ يعمل أيضاً لتطوير نفسه وخدمة مجتمعه والتقرّب من ربه.

لذلك نجد أنّ رحلة الإنسان في الحياة تشبه رحلة التطور من الطفولة إلى النضج، ففي البداية تكون الحاجات المادية هي الأهم كالطعام والشراب والأمان، إلاّ أنّها مع النمو والنضج، تبدأ الحاجات العليا بالظهور كالحاجة للحب والانتماء، وللتقدير والاحترام، وللمعنى وتحقيق الذات، والإنسان الناضج هو من تجاوز مرحلة الانشغال المفرط بالماديات، وبدأ بالبحث عن معنى أعمق لوجوده، وهذا لا يعني هذا إهمال الجانب المادي، إنّما وضعه في المكان المناسب من سلّم الأولويات.

ARAB-PSF.COM

فقد قيل بأنّ قيمة الإنسان تتأتّى بما يعرف لا بما يملك، وهذا القول يلخّص أهمية المعرفة في رحلة التطور الإنساني، فالمعرفة هنا ليست مجرد معلومات أكاديمية، إنّما فهم عميق للحياة والوجود، حكمة تُكتسب من التجربة والتأمل، وعي بالذات والكون المحيط، وهذا النوع من المعرفة يحرّر الإنسان من قيود الماديات ويفتح أمامه آفاقاً واسعة من الفهم والإدراك، فالإنسان ذو المعرفة يجد السعادة في أشياء لا يمكن شراؤها بالمال، فقد يجدها في جمال الطبيعة، في عمق الصداقة، وفي لذة التفكر والتأمل.

لذلك فإنّ أحد أهم جوانب غنى القلب هو السكينة الداخلية، تلك الحالة من السلام النفسي التي لا تعتمد على الظروف الخارجية، وإنّما تنبع من الإيمان العميق بأن هناك حكمة وراء كل ما يحدث، وأنّ قيمة الإنسان لا تُقاس بما يملك من مال أو عدد أولاد، فالشخص الذي يحقّق هذه السكينة يمكنه أنْ يواجه تحديات الحياة بثبات وصبر، فلن تحطمه خسارة مال، ولن يقتل روحه مرض عضال، ولن تفقده قيمته شيخوخة عمر، لكونه يعرف أنّ جوهره وقيمته تكمن في أمور أعمق وأدوم.

كما أنّ من أهمّ مصادر غنى القلب هو العطاء والخدمة، فالإنسان الذي يجد معنى حياته في خدمة الآخرين ومساعدتهم يشعر بسعادة لا توصف، وهذا النوع من السعادة لا يمكن شراؤه بالمال، إنّما يُكتسب من خلال فعل الخير والإحسان، والعجيب أنّ العطاء يزيد من ثراء القلب بدلاً من أنْ ينقص منه، فكلّما أعطى الإنسان من وقته وجهده وحبه، امتلأ قلبه أكثر، وهذا منطق يختلف تماماً عن منطق المال الذي يقتضي نقصان رصيد المال بالإنفاق.

ولذلك فإنّ فهم الفرق بين غنى القلب وغنى المال يتطلّب إعادة ترتيب الأولويات في الحياة اليومية، فبدلاً من قضاء الوقت بأكمله في السعي وراء المزيد من المال، من الممكن تخصيص وقت للتطوير الشخصي، للقراءة والتعلم، للتأمل والصلاة، لقضاء وقت جودة مع اللّٰه والنفس والعائلة والأصدقاء، وهذا لا يعني التقاعس عن العمل أو إهمال المسؤوليات المالية، إنّما يعني ضرورة تحقيق التوازن، من خلال العمل الجاد والسعي للرزق، دون أنْ يطغى جانب على آخر.

ARAB-PSF.COM

فعوضاً عن استثمار كلّ الأموال في زيادة الثروة المادية فقط، يمكن استثمار جزء منها في النمو الشخصي والروحي، فالاستثمار في التعليم، في الكتب والدورات التدريبية، في السفر الذي يوسع الآفاق، في الأنشطة التي تطور المواهب والقدرات، كلّها مجالات استثمار تعطي عوائد لا تقدّر بثمن، لكونها عوائد على شكل نموّ شخصي، وسعادة داخلية، وقدرة أكبر على التأثير الإيجابي في الآخرين.

فضلاً عن أنّ إحدى أهمّ الممارسات التي تساعد على غنى القلب هو الامتنان، فالشخص الممتن يرى النعم في حياته، حتى وإنْ كانت بسيطة، فهو يقدّر الصحة عندما يتمتّع بها، ويقدّر الطعام الذي يأكله، والسقف الذي يحميه، والأصدقاء الذين يحبونه، ويحوّل النظرة من التركيز على ما نفتقده إلى التقدير لما نملكه، فهذا التحول في المنظور كفيل بأنْ يملأ القلب بالسعادة والرضا، دون التفكير بحجم الثروة المادية.

وفي نهاية هذه الرحلة التأملية،

نجد أنّ الحكمة تكمن في فهم الطبيعة الحقيقية للسعادة والقيمة الإنسانية، فالمال والأولاد زينة جميلة للحياة، وهم نعم عظيمة تستوجب شكر اللّٰه تعالى، والاستفادة منها، إلاّ أنّ قيمتنا الحقيقية كبشر لا تُقاس بهما، وإنّما تكمن فيما نحمله من معرفة وحكمة، وما نملكه من حب ورحمة، وفي قدرتنا على العطاء والإيثار، وفي إيماننا وتقوانا، وفي أثرنا الإيجابي في حياة الآخرين، فهذه هي الثروة الحقيقية التي لا تنضب والقيمة التي لا تتغيّر مع الزمن.

ونحن إنْ قرّرنا العيش بهذا الفهم، فإنّنا نحرّر أرواحنا من عبوديّة المال دون الزهد فيه، ونقدّر أولادنا دون أنْ نعبدهم، ونسعى للرزق بجد واجتهاد وبتوازن مع تزكية أنفسنا وإثراء قلوبنا، فالحياة الحقيقية هي التي تجمع بين غنى المال وغنى القلب، وبين النجاح المادي والنمو الروحي، وبين تحقيق الأهداف الدنيوية والسعي للكمال الإنساني، ففي هذا التوازن نجد السعادة الحقيقية والسلام الداخلي الذي يبحث عنه كلّ إنسان.

ARAB-PSF.COM